التسامح الفكري والديني في الأندلس خلال عهد الطوائف القرن الخامس الهجري

د. بوخاري عمر

جامعة ابن خلدون – تيارت-

الملخص:

ظلّ التعايش سمة من سمات المجتمع الأندلسي خلال عهد الطوائف، حيث تعايشت عناصر وإثنيات مختلفة، بفعل التسامح الذي كانت تمنحه دول الطوائف للجاليات المسيحية واليهودية وغيرها.

وحتى هذا العهد بقيت الحريات الفكرية والدينية مكفولة في ممارسة شعائرهم الدينية، والتعبير عن أفكارهم وعقائدهم دون قيد أو رقيب، وفتح لهم المسلمون مجالا فسيح للتحاور الفكري رفيع المستوى في المنهج والمعاني، والموضوعات المطروحة، للبرهنة عن أفكارهم وعقائدهم.

وسمحت هذه الأوضاع ببروز شخصيات ساهمت بقسط وافر في مختلف العلوم التي أعطت للحركة العلمية دفعا قويا في الأندلس.

وحتى على الصعيد السياسي اعتلا بعض أهل الذمة مناصب حساسة في هرم السلطة في بعض الإمارات الأندلسية خلال قـ05هـ/ 11م.

Abstract :

The cohabitation remained one of the characteristics of Andalusian society during the sects era, where different varieties

and ethnic groups have coexested together by virtue of the tolerance which was garanted by sects States to the Christian and Jewish communities and others .
Until this time moral and religious freedoms have remained insured for them, so they could practice their religious rites and express their ideas and beliefs without restriction or control.
Thereby, Muslims gave them the opportunity to make intellectual dialogues of a very high level in the methodology, the semantic and the topics proposed inorder to prove their ideas and beliefs.
This situation has allowed the emergence of personalities who contributed in various sciences which gave to the scientific movement a major boost in Andalusia.
On the political front somme of Dhimmis had occupied sensitive positions in the pyramid of power in some Andalusian Emirates during the 5th century Hijri /11th AD.

تجدر الإشارة إلى أن هذا العصر الذي حاولنا الحديث فيه عن التسامح الفكري والديني، هو عصر الانحلال السياسي والعسكري، والتمزق الاجتماعي، والتطاحن العرقي إلى أبعد ما يكون عليه مجتمع حصدته رحى الحرب الأهلية.

على أنّه لمما يستوقف النظر حقا أن ممالك الطوائف كانت خلال هذا الانحلال الشامل ترفل في أثواب لامعة زاهية، فقد كانت في الفترات القليلة التي هدأت فيها الحرب الأهلية تتمتع بقسط هائل من الرخاء وتغمرها الحركة والنشاط،

وتجود فيها القرائح والعلوم، وتزدحم فيها الإبداعات الفكرية المتخلفة والمجادلات الهادئة في جو من التعايش السلمي والتسامح الديني.

وهو في حقيقة الأمر استمرار لمرحلة سابقة، تفيأت خلالها جاليات من مختلف الديانات.

يقول الأستاذ كرد علي: "كره العرب التعصب، ولا سيما في الأندلس وعمدوا إلى التسامح المعقول، فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الإسبانيين والبرتغاليين حتى أنهم كانوا إذا شجر خلاف بين مسلم ومسيحيين من الجند يُعطى الحق غالبا للمسحيين، ورخصوا أن يتعبد كل إنسان بالصورة التي يراها، فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب"(1).

ولذلك فقد كانت لسياسة التسامح الرشيدة التي سار عليها العرب الفاتحون عقب الفتح أثر واضح في اعتناق الإسبان للدين الجديد.

وكان ممن حاز قصب السبق في اعتناق الإسلام تلك المجموعات التي أطلق عليها العرب الفاتحون الأسالمة أو المسالمة، وهم ممن اعتنق الإسلام طواعية، إما بحثا عن مصلحة شخصية، أو إيمانا بهذا الدين الذي ضمن لهم حقوقهم وفي مقدمتها المساواة مع العرب(2).

ومما هو معروف أن الجماعات الأولى التي أسلمت من الإسبان كانت من العبيد ورقيق الأرض الذين كانوا يئنون تحت وطأة المتاعب التي شنها عليهم الإقطاعيون وخاصة فئة عبيد الأرض الذين كانوا على حالة من السوء، بحيث بدا لهم أن الإسلام طوق نجاة من أوضاعهم المزرية.

فإلى جانب هذه الفئة فقد اعتنق الدين الجديد كثير من أرباب الأراضي والضيعات وأهل المدن على اختلاف طبقاتهم، وكان مما شجع هؤلاء في معانقة الدين الجديد سياسة التسامح التي اتبعها الفاتحون وهي مستمدة من مبادئ دينهم "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينْ"(3) وقد استجاب خلق كثير من الاسبان للدعوة الجديدة(4).

لقد ولد هذا التسامح ولين الجانب عند الإسبان رغبة في اعتناق الدين الإسلامي، وهي خلال لم يألفها هؤلاء عند من غزوا أرضهم من غير المسلمين، ليس هذا فحسب بل اعتبر المسلمون أن من دخل من هؤلاء الذميين الإسلام تسقط عنه هذه الصفة تلقائيا، وينتقل إلى وضع المسلم دون تفريق أو تمييز وهو عكس ما كان يحدث في الشرق الإسلامي(5).

وعلى هذه الحال دخل كثير من أهل الأندلس الإسلام وعدوا من الجماعة الإسلامية وتلاشت معها كل صفة لها علاقة بأصلهم(6).

وحتى أولئك المستعربون الذين تعايشوا مع المسلمين وتأثروا بلغتهم وعادتهم وتعربوا تعريبا أنساهم لغتهم، تمتعوا طوال العهد الإسلامي بحرية الفكر والعقيدة والتسامح التام. وظلّت كنائسهم وأديرتهم قائمة محاطة بالرعاية والحماية، بل وسمحت لهم الحكومة الإسلامية ببناء كنائس جديدة، وكانوا يتمتعون بالحرية الكاملة داخل أحيائهم، وكان لهم رئيس يعرف بالقومس وقاضيهم يسمى بقاضي النصارى(7).

فسمحت لهم هذه الأوضاع بالمساهمة في الحياة الفكرية فقد انكب علماؤهم على دراسة التراث العربي، ومن شعر وأدب وفلسفة، وشارك كثير منهم في الحياة السياسية وإليهم يعود الفضل في انتشار الحضارة الإسلامية في إسبانية المسيحية بحكم إجادتهم للغة العربية واللاتينية الحديثة.

وعلى أية حال فإن اهتمام حكام المسلمين بأهل الذمة من النصارى لم يتوقف عند هذا الحد من رعاية حقوقهم المدنية، بل تعدتها إلى رعاية شؤونهم الدينية(8)، ولعل من صورها التي يمكن الاستشهاد بها ذلك الامتياز الذي حظي به أمير دانية(9) علي بن مجاهد بجميع كنائس إمارته حين جمع رجالها تحت لواء أسقفية برشلونة يتلقون منها الزيت المقدس، والأوامر الدينية وقرارات التعيين في ضائف الرهبانية(10).

ولعل هذه الرعاية الزائدة لشؤون نصارى، والكفالة الرحيمة، قد فتحت بابا من الـــتآلف والتعايش، وانمحت معه جميع أشكال التمييز حتى أن الشعراء والأدباء كانوا يترددون على الكنائس والأديرة بدافع الفضول لمشاهدة ما يجري بداخلها من طقوس وشعائر، ولفهم ما كان يسمع من همهمات صلوات كَنَسية(11).

و مما يدل على حرية تعبدهم، واستئناس المسلمون بها، ما أورده صاحب المطمح في ترجمته لأبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد(12) قوله:" وبات ليلة بإحدى كنائس قرطبة وقد فرشت بأضغاث آس وفرشت بسرور

واستئناس، وقرع النواقيس يبهج سمعه ... والقس قد برز في عبدة المسيح، متوشحا بالزنانير أبدع توشيح، قد هجروا الأفراح وطرحوا النعم كل المزاح.

لا يعمدون إلى ماء بآنية إلا إغتراف من الغدران بالراح(13)

وبذلك طبق المسلمون سياسة من التسامح حيال أهل الذمة، وخصوصا ما تعلّق بعقيدتهم فقد تركوا لهم كنائسهم وديرهم، ومنعوا المسلمين من أن يتعرضوا لها بأذى، وبقيت معابدهم قائمة رغم تغير الأحوال في الأندلس، كدير أرملاط ودير سان خوان دي لابينيا، ومما يدل على كثرتها ما ذكره ابن شهيد: "وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة فشق سمعنا قرع النواقيس، وسرنا نجتاب أديارا و كنائس..."(14).

هذا فضلا عن الكنائس التي كانت منتصبة في عواصم الإمارات بقرطبة سرقسطة وطليطلة وإشبيلية 15، وكانوا يقرعون النواقيس وهي بمثابة حرية التعبير.

والإفصاح عن العقيدة في مجتمع غابت فيه جميع أنواع القيود، قد أشار ابن حزم إلى هذه الشعيرة في كتابه طوق الحمامة بين الألفة والألاف.

أَتَيْتَنِي وهِلَالُ الْجَوّ مُطَّلِـــعٌ قُبيلَ قَرْعِ النّصَارَى للنَّواقِيـــسِ

ولَاحَ فِي الأُفقِ قَوسُ اللهِ مُكْتَسِيًا مِنْ كُلّ لَونٍ كَأَذْنَابِ الطّوَاوِيسِ(16)

وكذلك الأمر مع أولئك المعاهدين من النصارى الذين كانوا يكوّنون أقليات ذات شأن في القواعد الأندلسية الكبرى، فقد كانت مصايرهم وأحوالهم في كل دولة من دول الطوائف تتوقف على ظروف كل إمارة وعلى سياستها

الداخلية، وعلى العموم فإنهم لاقوا نفس المعاملة الكريمة ولطف المآنسة(17) ففي مدينة قرطبة عملت حكومة الجماعة جهدها لتأمين المعاهدين وحمايتهم من العامة فقد ندب جهور(18) وزيره الشاعر الكبير ابن زيدون للنظر في شؤون أهل الذمة في بعض الأمور المعترضة(19) حرصا منه على إنجاح مشروعه الأمني الذي ندب له لتحقيقه بعد الاختلال الفضيع الذي هز أركان الخلافة الأموية في الأندلس.

وفي هذا الجو المفعم بالتسامح والمسالمة، فقد تردد الزهاد والمتصوفة من المسلمين على الكنائس والأديرة طلبا للجدل الديني وتبيين الحقائق وما غمض من عقيدة النصارى، وهي في الغالب كانت تتم حول عقيدة صلب المسيح، وأنسنة الإله وتأليه الإنسان وما يتبع ذلك من مفتريات.

فهذا الشاعر المشهور الششتري يقف بباب الدير في أدب حجم واحترام كامل ويوصي غيره بالتأسي قائلا:

تأدب بباب الدير واخلع به النعلا وسلم على الرهبان واحطط بهم رجلا(20)

وبالرغم من الحروب المتواصلة بين المسلمين والنصارى على عهد ملوك الطوائف فقد استمر الحوار الحضاري بين الديانات المختلفة فقد دخل المسلمون مع أهل الذمة في حوار حضاري رفيع المستوى لا من حيث الأسلوب فقط، ولكن من حيث المنهج والمعاني، والموضوعات المطروحة للبرهنة على صحة العقيدة ودحض عقيدة الغير.

وكان بنو هود يدفعون غوائل المد النصراني، بتجسيد سياسة التسامح المطلق نحو رعاياهم النصارى فقد استوزر المقتدر بن هود تـ474هـ، ملك سرقسطة أبا عامر بن بد شلب النصراني و كان أديبا شاعرا(21).

لقد مدّ بنو هود جسور الحوار مع المماليك النصرانية وأدى هذا الانفتاح إلى تفاعل حضاري على نطاق واسع، وتم تبادل الرسائل التي يحرص فيها كل طرف على تبيين براهينه الفكرية والعقدية.

مثال على ذلك، الرسائل التي بعث بها راهب فرنسي إلى المقتدر بن هود (تـ474هـ) حاكم سرقسطة يدعوه إلى اعتناق النصرانية(22) والتخلي عن عقيدته الإسلامية، وصادف ذلك وجود أبي الوليد الباجي في حضرة المقتدر أمره بكتابة الرد على لسانه، فانبرى الباجي مقيدا بشروط المناظرة وآدابها، وسلك فيها طرق الاعتدال والحجة بالحجة دون اللجوء إلى الشتم والسخرية والفحش والبذاءة واستطاع بعبقريته أن يدحض الفرية، وأن يحوّل خصمه من داع إلى مدعو بأطيب مؤونة وأيسر مبذول دون أن يقحم نفسه في أتون الملاسنة وإبطال الحوار.

ومع ما كانت تمنحه حكومة سرقسطة تمنحه للنصارى المعاهدين من رعاية وحماية، وإشراكهم في الحياة السياسية والاجتماعية، لم يشعروا قط بعاطفة نحو الحكومات المسلمة، فقد ظلوا يضمرون الخصومة والأحقاد ويتهيؤون لأي فرصة سانحة تمكنهم من الإيقاع بها، حتى كانت نكبة قلمارية23 (456هـ-1064م) وكان من أبرز عوامل استسلامها، وقوف رهبان دير لوربان القريب

من قلمارية إلى جانب جيش فرديناندوا وتزويده بالمؤونة المختزنة لديهم، سهلوا بذلك الصمود، وكان ممن ساعدهم للدخول على المدينة أحد عبيد ابن الأفطس ويدعى راندة، قائده على قلمارية، فقد تقابل مع فرديناندو ليلا وطلب منه الأمان مقابل أن يخرج إليه من البلد، ويطلق يده فيها، وفي الصباح فوجئ أهل المدينة بأعدائهم فلما أيقنوا أنهم منهزمون طلبوا من العلج الأمان، فلم يجبهم بذلك، وجدّ في القتل و سبي الحريم(24).

لقد بانت هذه الوقيعة على النوايا الحاقدة التي كان يضمرها النصارى المعاهدون ونمى عند المسلمين شعور بالحذر والريبة ضد النصارى في كامل القواعد الأندلسية، وعلت أصوات العلماء والفقهاء بالتعبئة وتنوير الرأي العام بخطورة الوضع، وطالبوا بتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح التي منحت لهم(25).

وأمثله ذلك ما طالب به ابن عبدون في كتابه: "أنه يجب أن يقطع بلاد الإسلام ضرب النواقيس وأنه نظرا لفساد الأخلاق القساوتة، يجب أن يؤمروا بالزواج وأن يرتدي المسيحيون واليهود ثيابا معينة وألا يركب أحدهم جوادا وألا يشتري مسلم رداء ارتداه مسيحي أو يهودي(26).

ومن الفئات التي تميأت ظلال الحرية والتسامح الديني فئة اليهود التي لاقت هي الأخرى ويلات الاضطهاد في ظل الحكم الروماني وذلك بعد دخول المسيحية شبه الجزيرة الإيبيرية، حين أقدم المجتمع الطليطلي كل إصدار قراراته القاسية ضد اليهود وتمييزهم عن باقي فئات المجتمع وذلك بوضع شارات

ليسهل التعرف عليهم، ومنعهم من بعض الطقوس الدينية كختان العبيد وتعميد أولادهم الذي ينحدرون من أم نصرانية(27).

وعلى أية حال فإن اليهود ذات مرارة الذل والاضطهاد مع بقية طوائف الشعب التي أخذت تتوق إلى الخلاص دون أن تجد إلى ذلك سبيلا(28)، ولما حل المسلمون ببلاد الأندلس، تخلص اليهود من كابوس الاضطهاد، واستمتعوا بحرياتهم التي منحهم المسلمون إياها، ومنها الحرية الفكرية والدينية التي ظلّوا يكتمونها طوال دهور حتى أطلق عليهم باليهود المستترين judaizantes .

لقد كان هذا المتنفس والشعور بالأمان الذي لقيه اليهود عند المسلمين دافعا إلى المشاركة في الحياة العلمية والاقتصادية بشكل فعال، وسجلوا حضورهم في ميادين العلوم المختلفة وكانوا على جانب كبير من التنظيم فقد توارثوا حب الدين والجلوس إليه، حيث يروى أن الشاعر الأندلسي الشهير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد كان أستاذا ليهودي اسمه يوسف بن إسحاق(29) يعلمه الشعر و الأدب(30).

وكان علماؤهم أصحاب التلموذ يسلكون طرقا مشابهة للطرق التي يسلكها الفقهاء المسلمون، وعلى شاكلتهم سار الأطباء والمترجمون الذين برعوا في ترجمة العديد من المصنفات بلغات مختلفة من منها العبرية والعربية، والقشتالية وأحيانا اللاتينية واليونانية، وقد استمر عدد كبير من بين هؤلاء العلماء أمثال "حسداي بن شبروط" طبيب الخليفة الناصر وأحد الوجوه المعتمدة لدى الخليفة في استقبال سفراء الدول والممالك الأجنبية(31).

وبهذه المعاملة الكريمة والتسامح تبدلت أحوال اليهود إلى أحسن الأحوال، فقد لقي هؤلاء من المسلمين من حسن المعاشرة ما لم يلقونه مع أمم أخرى، بل أشركهم المسلمون في شؤونهم الاقتصادية والاجتماعية، وحتى السياسية، مما حدى بعض المؤرخين اليهود المعاصرين إلى التصريح والاعتراف قائلا: "وتجدر الإشارة هنا إلى أن اليهودية في الأندلس كانت أحسن حالا من غيرها من البقاع الأخرى، من حيث الأمن والاستقرار، وقد لعب يهود الأندلس، بما كانوا عليه من وضع قانوني دورا مهما في ازدهار حياة البلاد الاقتصادية، بل في شؤون العامة، وإليهم يعود الكثير من الفضل في الازدهار العام فمنحهم هذا الرفاء والرخاء، والتفرغ لطلب العلوم وبلوغ المراتب العليا في الفكر في كل مشاربه المتمثلة إذّاك في العلوم والآداب العربية الأندلسية، مما مكّن اليهود من أن يؤثّروا تأثيرا كبيرا في تطور الفكر اليهودي، وأن يسهموا في إخصاب وإغناء مختلف أشكاله التعبيرية، وكان نتيجة لذلك أن نالت الدراسات العبرية في جوانبها اللغوية والأدبية"(32).

وحتى في مجال الشعر الذي كان العرب المسلمون قد قطعوا فيه شوطا بعيدا، ووظّفوه في حياتهم اليومية، المدينية، والدنيوية والعاطفية وأطلقوا العنان لقرائحهم الشعرية أن تجود بالقصائد الرائعة التي تغنّت بها أجيال متوالية، كما عبّروا عن خلجات النفس والروح، ولم يجدوا في ذلك عائقا دينيا يمنعهم من ذلك، في حين لم يعن الشعر اليهودي في بلاد المشرق -الذي كان حبيس الشعر الديني- إلا بعد انتقاله إلى الأندلس فقد ظهرت بالتدرج اتجاهات شعرية

دفعت بالشعر العبري إلى الخروج من هذا المسمى إلى مجال أكثر تفتحا، يعبر به أصحابه عن مواقفهم من الطبيعية، والحياة اليومية، اقتداء بالشعراء المسلمين، مما جعل هذا الاتجاه موضع جدل وخلاف بين رجال الدين وأصحاب هذا الاتجاه من شعراء اليهود، فأدى ذلك إلى ظهور مدرستين متنافستين يتزعم إحداها "دوناش بن لبرات" والثانية يتزعمها "مناجم بن سروق"، وغدا الاتجاه الثاني مثله مثل شعراء المسلمين في الأندلس في مقاصده وموضوعاته، وأصنافه وتقنيات نظمه(33).

وعلى أي حال فقد استطاعت هذه الشخصية اليهودية أن تجمع بين ولاء السلطة الزيرية وتفانيها بالقيام بالمسؤوليات العسكرية التي انيطت بها ففي مستهل عهد الطوائف و بالرغم من الفتنة التي عمت الأندلس و عصفت بأعداد كبيرة من المسلمين الذين ينموى إلى مختلف الأعراق، لم يثن ذلك اليهود من أن ؟ مناصب حساسة في إمارات فمختلفة كغرناطة التي نالت المناصب الحساسة في الدولة و هواس الن؟ الذي تقلد مرتبة الوزراء في دولة بني زيري حتى اصبح مطلق التصرف في شؤون الدولة و كذلك فعل بعض أقرانه من اليهود(34).

وعلى أي حال فقد استطاعت هذه الشخصية اليهودية أن تجمع بين ولاء السلطة الزيرية ونفانيها في القيام بالمسؤوليات العسكرية التي أنيطت بها وبين وفائها لأصولها اليهودية وتعاليم أسلافها وقادته، عبقريته الإبداعية إلى الجمع بين المعارف اليهودية والعربية وبين الأدب العربي والكتابات التلموذية(35).

والحق أن ما آلت إليه هذه الشخصية من علو المكانة وذيوع الصيت، هو بفضل ما كانت تتمتع به الجالية اليهودية من الحركة الفكرية والدينية والأمان في جميع شؤون الحياة، ونظرا للحظوة التي نالها من بني زيري الحكام فقد تزلّف إليه الأدباء والشعراء لينالوا منه الرضا والمكافأة، وكان منهم آخرون نصبوه العداء وأوكلوه وابلا من الشتائم ضمنوها قصائدهم الشعرية، ومن هؤلاء أبو إسحاق الإلبيري(36) القائل في قصيدته الطويلة منها:

وقد قسّموهَا و أعمالهـــا فمنهم بكلِّ مكانٍ لعين

وهم أمناءكُم على سرّكُم وكيف يكونُ أمينًا خؤُون(37)

وكان منهم آخرون تملّقوا على بابه، ولبسوا مسموح الذل لينالوا منه مشاريعهم ومن هؤلاء الأخفش(38) الذي امتدحه بقوله:

أهْوَى الذي يُتَمنَّى مِنهُ ومَا درى أَنّي أهواهُ

أكادُ أفنَى مِنْ غَرامٍ بهِ لا سِيما ساعةَ ألقاهُ

ظل اليهود متمتعين طوال العهد الإسلامي بتسامح المسلمين، اللهم إلى ما حدث من ردة فعل عندما كان زعماء اليهود يتجرؤون بتصريحاتهم وتطاولهم على القرآن والشريعة، وكان في طليعتهم يوسف بن النغريلة الذي ألّف كتابا ضمّنه تصريحات جريئة قصد منها بزعمه بيان تناقض كلام الله، وتمادى في هذا السبيل، ممتهنا الازدراء والاستخفاف بالمسلمين، وأصبح حديث الخاصة والعامة، وجلب لنفسه الكثير من الانتقادات، ليس لكونه يهوديا متعصبا بل كان مستهترا بجميع الأديان يذكر راينهارت دوزي أن يوسف بن إسماعيل لم

يكن يهوديا إلاّ بالاسم فقط، وكان لا يصرّح بالطعن حيال الدين اليهودي، بيد أنّه يجاهر بالطعن في الدين المحمدي ويعيب أحكامه، ويحرّف آياته و لم يقف عند هذا الحدّ، بل تعدّاه إلى الإساءة إلى العرب والبربر وحتى اليهود، وجرح كرامة الجميع بكبريائه وترفعه وإعجابه وزهوه، وتبجحّه بالآراء الدينية(39)، وحامت بذلك حوله الكثير من الشبهات، فأثارت هذه التصريحات الكثير من الفقهاء والعلماء الذين وقفوا على هذا التحدي السافر من يهودي استخف بأقدس مقدساتهم، وأصبحت تذاع مخازن وفضائح واستهدفته الألسنة لاهجة بالخزي ومن يومئذ توحدت الآراء والمواقف لدى الخاصة والعامة بضرورة وضع حدّ لمفتريات اليهود ومن والاهم من النصارى المؤيدين، وممّا زاد في حدة الشعور بالإهانة هو جرأة هؤلاء –وهم شرذمة قليلة بين ظهران المسلمين– على الطعن في شريعة المسلمين وكان ضمن من انبرى للرد الشاعر "المنتفل"(40) و"أبو محمد بن حزم" الذي أهدر دم هذا اليهودي بقوله: "حقه الواجب عليه من سلفه الدماء وإسفاء ماله وسبي نسائه وولده".

وتناقلت مفترياته الأسماع وتحدثت بها الركبان، وملئت قلوب الخاصة والعامة حقدا وكراهية، لما كان من كيده للإسلام، وقام الغيورين من المسلمين في نشر الوعي وتحريض عامة قرطبة، وحمل كثير من جمهور المسلمين على معاداته وكان الشاعر الزاهد أبو إسحاق الإلبيري فارس هذه الحملة الذي ألهب الصدور بقصيدته النونية السهلة المبنى القوية المعنى حتى يلامس الأسماع ويثير نخوتهم منها:

ألا قلْ لصَنهاجةَ أَجمعين بِدورِ الزمانِ وأسَدِ العرين
لقدْ زلَّ سيدكم زلة تَقرّ بِهَا أَعيَنِ الشّامِتيـــنَ
تخيّرَ كاتبهُ كـــــافِرا ولو شاءَ كانَ من المؤمنينَ
فعزَّ اليَهُودُ بهِ و ارْتَخوْا وتاهُوا وكَانُوا منَ الأرْذلينَ
ونانوا مُناهُم وجازُوا المَدى وقد جَازَ ذاكَ وما يشعرونَ(41)

لم يكترث ابن النغريلة لهذه الأصوات، و لم يلتفت للقدر الذي يجره إلى صنفه يوما بعد يوم، وأردف على ذلك بشرّ أعظم منه فقد تشوفت نفسه إلى خلق كيان يهودي داخل غرناطة والإحاطة بباديس وعرشه، فكاتب صاحب المرية المعتصم بن صمادح سرا يعرض عليه الدخول إلى غرناطة(42).

فلما حلّت جيوش ابن صمادح على أسوار غرناطة، بانت خيوط المؤامرة التي حبك يوسف بن النغريلة خيوطها، فتعالت أصوات الجماهير بقتله وتدفقوا على القصر من كل ناحية، فلما أيقن بنهايته استتر داخل خزانة للفحم فسوّد به وجهه وتنكّر فعثر عليه داخل الخزانة وقتل شر قتله، ثم خرجوا إلى بقية اليهود قتلا وإبادة وتم تصفية أعداد كبيرة منهم زادت عن ثلاثة آلاف(43).

وما كان هذا الأمر ليحدث لولا أن اليهود مسوا كرامة المسلمين وعبثوا بمقدساتهم. وأن إقدام هؤلاء اليهود على هكذا أفعال يعطينا صورة واضحة على درجة التسامح والحق في التعبير التي منحها المسلمون للذميين من النصارى واليهود إلا أنه غاب عن هذه الفئات أن للمقدسات حرمات لا يمكن تجاوزها. ومهما حدث من مواجهات مع اليهود فإن روح التسامح ظلت سائدة إلى أن

كانت أيام الموحدين الذين أجلوهم عن الأندلس لما كان لهم من موالاة للنصارى الشماليين وهاجر عدد كبير منهم إلى بلاط ملوك إسبانيا المسيحية(44).

الهوامش

1 – كرد علي، غابر الأندلس وحاضرها، المطبعة الرحبانية، مصر، 1423، ص 38.

2 – السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1408- 1988، ص127.

3 – القرآن الكريم، سورة البقرة، جزء من الآية: 256.

4 – السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 127.

5 – نفسه، ص127.

6 – حسين مؤنس، فجر الأندلس، دار الرشاد، القاهرة ، ط3، 1405-1985، ص 344.

7 – السيد عبد العزيز سالم، نفسه، ص: 121.

8 – حسن الوركلي، ياقوتة الأندلس، دار الغرب الإسلامي، ص 134.

9- دانية: مدينة بشرق الأندلس على البحر عامرة حسنة لها ربض وسور حصين، ويكثر فيها شجر التين، وكثيرة الكروم، وترسو بمينائها السفن جيئة وذهابا ومنها كانت تخرج الأساطيل إلى الغزو، لأنها دار إنشائه، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1975، ص 231- 232.

10- هنري بريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1408-1988، ص 248.

11- حسين الوراكلي، المرجع السابق، ص 134.

12- هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي وزير من كبار الأندلسيين أدبا كان مولده سنة 382هـ-992م عالم بأقسام البلاغة ومعانيها، حاز قصب السبق فيها، كان

نسيج وحده، له شعر جيد يهزل فيه ويجد وتصانيف بديعة منها " كشف الدك وإيضاح الشك" و"حنوت عطار" و" التوابع والزوابع" وله بينه وبين أبن حزم الظاهري مكاتبات ومداعبات، ابن خاقان الفتح، كتاب تاريخ الوزراء والكتاب والشعراء في الأندلس، تحقيق: مديحة الشرقاوي مكتبة الثقافة الدينية، ط2، 2001، ص81.

13- ابن خاقان، نفسه، ص 83- 84.

14- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: سالم مصطفى اليدوي دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419- 1998، ج1، ص 160.

15 - السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص131.

16 - ابن حزم، طوق الحمامة الألفة والألاف، تحقيق: طاهر أحمد مكي، دار الهلال، الرياض، 1994، ص 133.

17- عبد الله عنان، دول الطوائف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط1، 1380- 1960، ص396.

18- جهور: هو جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله، أبو الحزم، رئيس قرطبة تعاقب أسلافه على الخطط السنية من الحجابة والوزارة والقيادة والكتابة قال عنه ابن حيان: "وكان مع براعته ورفعة قدره وتشييده لقديمه لحديثة من أشد الناس تواضعا وعفة وأشبههم ظاهرا بباطن وأولا بآخر، واستمر بتدبير قرطبة، فأنجح سعيه بصلاحها و لم شعثها في المدة القريبة وأثمر الثمرة الزكية وقال عنه الحميدي في الجذوة "لم يدخل في أمور الفتن قبل ذلك، وكان يتصاور عنها فلما خلا له الجو وامكنته الفرصة وثب عليها...". الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، 1425- 2004، ط1، ص 37. ابن الأبار القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق علي إبراهيم محمود، دار الكتب العلمية، ط1، 1429- 2008، ص 189.

19- ابن الأبار القضاعي، اعتاب الكتاب، الطبعة الهاشمية، ص: 212، 213.

20- حسن الوراكلي، المرجع السابق، ص 142.

21- عبد الله عنان، المرجع السابق، ص398.

22- ومما جاء في عبارة الدعوة إلى النصرانية: "... ونحن نضرع إلى سيدنا يسوع المسيح أن يتولى رعايتك ويتكفل سلامتك ويهديك دينه المقدس، ويسعدنا بالإيمان الصحيح به آمين..."، محمد عبد الله الشرقاوي رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين ورد أبي الوليد الباجي عليها، دار الصحوة، ص 27.

23- قلمارية: باليم المفتوحة مدينة بالأندلس من بلاد البرتغال تقع على جبل مستدير وعليها سور حصين ولها ثلاثة أبواب وهي في نهاية وهي صغيرة متحضرة عامرة كثيرة الكروم والتفاح ومكانها في رأس جبل لا يمكن قتالها، وبينها وبين البحر عشرة اميال. الحميري، المصدر السابق، ص 471.

24- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ومراجعة: ج كولان وبروفنسال، دار الكتب العلمية، ج3، ص 238.

25- عبد الله عنان ، المرجع السابق، ص399.

26- ابن عبدون، أداب الحسبة، الجريدة الآسيوية عدد أبريل 1432، ص: 111- 113.

27- حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص 411.

28- محمد زيتون المسلمون في الأندلس ، 1419-1990، ص151.

29- يوسف بن إسحاق، عاصر بن شهيد الشاعر وكان تلميذا له قال فيه: "... لم يزل يتدرب باختلافه إلي حتى ذري تربة وطلع عشبه ثم تفتح زهرة ...". ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص 46.

30- نفسه، ج1، ص145.

31- ليفي بروفنسال، حضارة العرب الأندلس، ترجمة: ذوقار قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص108.

32- حابيم الزعفراني، يهود الأندلس والمغرب، ترجمة: أحمد سحلان، مطبعة النجاح الجديدة، 2000، ج1، ص 176.

33 - نفسه، ج1، ص175.

34- *David Wasserstan – samuel its haghrila ha nagid and islamic historiographig in al-andalus al- qarton renista de estudios arabes vol xll madrid 1993 facc1 .*

35- حابيم الزعفراني، المرجع السابق، ص101.

36- أبو إسحاق الألبيري: هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري، فقيه فاضل زاهد عارف كثير الشعر في ذم الدنيا مجيد في ذلك، وهو من حصن العقاب واشتهر في غرناطة وذاع صيته وعرف بالصلاح وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن النغريلة اليهودي، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له، وله ديوان ملآن من أشعار زهدية ولأهل الأندلس غرام بحفظها. الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: خليل صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية بيروت، 1426-2005، ص 205، ابن سعيد الغرناطي المغرب في حُلى المغرب، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413- 1998، ص 106-107.

37- ابن الخطيب، لسان الدين أعمال الإعلام ص232.

38- الأخفش: هو الأخفش بن ميمون القيذاقي يعرف بإبن الغراء ، أصله من القنذاق و تأدب في قرطبة و له أمداح في النظرية اليهودي وزير غرناطة ، و من أمداحه تلك المشار إليها أعلاه، ابن سعيد ، المصدر السابق، ج2، ص151.

39- دوزي راينهارت، المرجع السابق، ص 10.

40- المتنفل: هو أحمد بن عبد العزيز بن خيرة القرطبي المشتهر بالمنتقل، شاعر وأديب محسن قال عنه ابن سام "نثر الدر المفصل وطبق في بعض ما نظر المنفصل ، ابن سام، المصدر السابق، ج1، ص: 171، الضبي، المصدر السابق، ص 408.

41- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص 231.

42- ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص 266.

43- نفسه، ج3، ص 277.

44- السيد عبد العزيز سالم في تاريخ حضارة الإسلام في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة، 1985، ص181.